

القرآن

والارتقاء بالوجود الإنساني

كـ الدكتور. عمار طالي (*)

ويشير المؤمنون الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا [الإسراء/9].

لهذا فإن مصدر الأمة الإسلامية ومصيرها يبقى مرتبطا لا محالة بالقرآن ورسالته، وبدونه فإنه لا يمكن تصور مدى أصالة مشاركة المسلمين وغناها في الفكر الإنساني والحضارة ومدى إمكانية هذه المشاركة في مستقبل التاريخ إذا تحررت طاقة الأمة من قيود الركود، وإمكاناتها من الخمود.

فمن أعظم وجوه ترقية الإنسان أن شرح له القرآن التوحيد الخالص، ونفى عنه كل شائبة من الوثنية والضلال والشرك والخرافة، وحرر عقله وقلبه من كل عبودية للطبيعة أو للإنسان أو للثروة أو الطبقة أو الجنس أو اللون أو التقاليد تقاليد الآباء والأجداد البالية.

أعطاه صورة واضحة للوجود، وأنه حق لا عبث فيه، ولا مصادفة، وأنه يخضع

إن شخصية الأمة الإسلامية وهويتها وتاريخها وحضارتها مصدرها القرآن العظيم، فهو الذي كونها، وأخرجها للناس، وصبغها بصبغته، ووجهها في التاريخ وجهته.

فالقرآن جاء بتصور جديد للإنسان ومكانته في الوجود، وبمفهوم للوجود وللحياة، وأسس ذلك كله على "التوحيد" الذي هو محور القرآن، ولبه، ونوره الذي يشع من آياته وسوره صافيا وهاجا.

فكان القرآن بحق رسالة موجهة للإنسانية قاطبة لترقية العقل، والقلب، والذوق، ونظام حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، ودعوته لتحقيق مصيره في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

فإذا تصورنا كتابا أوجد أمة، وأخرج ثقافة ووجه التاريخ وجهة جديدة فهو القرآن، (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم،

(*) أستاذ التعليم العالي، ورئيس المجلس العلمي بمؤسسة المسجد - الجزائر

لنظام وقوانين سماها "سنن الله" كما أن المجتمع البشري أيضا يخضع لشروط وسنن تحكم مصائر في التاريخ، وأن تغيير شرط حياة الأمة متوقف على إرادتها في هذا التغيير، (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [الرعد/11]، غير ما بنفسك تغير التاريخ وبين العلاقة المتوازنة التي تربط الفرد بالجماعة، فلا طغيان لأحدهما على الآخر، وأقام هذه العلاقة على العدل،

وجعل الإنسان حرا ومسؤولا عن حريته في تصرفاته وأقام موازين الأخلاق العالية في السلوك الفردي والجماعي.

كما نبه الإنسان إلى مظاهر الجمال في الكون ليربي ذوقه، ومشاعره، ويغرس فيه الرقة في معاملة الناس، ويزكي فطرته، وإحساسه العميق بوجود الله الذي فطر عليه، وذلك من خلال التأمل في الطبيعة ونظامها وجمالها وجلالها، فإن ذلك كله إنما هو تجليات وآيات تبدو من خلالها صفاته سبحانه الذي أبدعها بعلمه وقدرته.

فترقية القرآن للإنسان تتميز بالشمول، فهي ترقية لصحته (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) [الأعراف/31] ولفكره وذوقه وتصرفه، ليحقق إنسانيته الكاملة في أعلى درجاتها، وأسمى صورها.

وعلم الإنسان وما يزال يعلم وحده أصل الإنسان، وإن تشعبت فروعه وأنسأله، وتوزعت في الأرض واختلفت ألسنتهم وألوانهم، ويُن أن هذه الألوان وهذه الشعوب وتلك القبائل غايتها التعارف بينها ولا منافاة بين هذا التعدد في اللغات والألوان، والتفافات من أن تضمها وحدة، ويشملها تعارف فما ذلك كله إلا تنوع في إطار وحدة، وأن الإنسانية اليوم - نحو ذا النحوي، وتتجه إلى هذا الاتجاه فتداخل الثقافات و... لكن الإنسان واحد، (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم). [الحجرات/13]

وهذه الأمة لا يكتب لها أن تشارك في هذه الحضارة العالمية، وهذا التدافع إلى العولمة إلا بنور القرآن، الذي يوحد القلوب ويؤلف بين النفوس، كما ألّفها من قبل في التاريخ وألّف بين قلوبهم (لو) أُنقّت ما في الأرض جميعا ما ألّف بين قلوبهم ولكن الله ألّف بينهم) [الأنفال/23] ألّف بينهم بالإسلام وقيمه الأخلاقية الإنسانية وتشريعاته الحكيمة، وتربيته لهذه النفوس تربية عالية رفعت هذه الأمة إلى علو الحضارة، وقوة العلم وقوة الخلق.

عن تربية شبابنا تربية قرآنية أصيلة لهي الكفيلة بأن ترفع شتاته إلى مستوى

الحضارة والمشاركة فيها بالعلم والقيم،
وسمو الهمم، ويخرجه من الظلمات ظلمات
الفقر والجهل والضعف إلى نور القيم
والغنى والعلم والعزة، ومن ظلمات
الأنانية والنظرة القومية الضيقة إلى فكرة
الأمة القوية المؤثرة في العالم، ومن عبادة
المنافع المادية والرغبات الذاتية، ومن
ظلمات الظلم والاستبداد إلى الحرية؛ فإن
القرآن يدعو إلى التحرر من كل هذه
الظلمات وألوان الفساد للتمتع بالعدل
والخير والحق والنور في هذه الحياة.

إن منهج القرآن في تربية الإنسان
يقوم على لونين من الخطاب خطاب
عقلي منطقي، وخطاب وجداني يخاطب
القلب، ولا يفصل بين هذين اللونين من
التوجيه والخطاب لأن في الفصل بينهما
ضررا يلحق الكائن البشري الذي لا
نستطيع أن نفصل بين عقله وقلبه فالقلب
يوجهه القرآن إلى الوجدان العميق
والفطرة الأصلية التي يتمتع بها في داخله،
والتي تتجه أيضا إلى خالقها ومبدعها وإلى
الإنسان بالبرقة واللفظ والرحمة وما إلى
ذلك من القيم الروحية العميقة، والقرآن
يستعمل هذا الخطاب القلبي لتعميق هذه
القيم كلها في النفس البشرية.

أما الخطاب العقلي فهو يوجه الذهن
إلى التفكير، والتأمل والبحث والنقد

والتعمق في العلم، علم هذا الكون وعلم
الإنسان، وما يحيط به من كائنات وعلم
التاريخ وقوانينه والمجتمع وضرورته في
الزمن.

فالقرآن ليس غذاء للقلب وأعماق
الإنسان فحسب، ولكنه غذاء لعقل
الإنسان ومنطقه وفكره، وطريقة البحث
والعلم وإقامة الحجة والبرهان، والجدل
بالتي هي أحسن فبهذين الأسلوبين في
الخطاب يذعن الإنسان للحق إذعانا عقليا
قائما على الحجة والبرهان كما يذعن
إذعانا روحانيا قائما على فطرة القلب
ووجدانه.

(وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم
تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا
آمنا فآكبتنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما
جاءنا من الحق ونقطع أن يدخلنا ربنا مع القوم
الصالحين) [المائدة/83/84].

(أفمن يشرح الله صدره للإسلام فهو على
نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله
أولئك في ضلال مبين، الله نزل أحسن الحديث
كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين
يخشون ربهم ثم تلتين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر
الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل
الله فما له من هاد) [الزمر/23].

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل
مثل لعلمهم بتذكرون) [الزمر/27].

والقرآن لا يتوجه إلى الدفاع عن مصالح طبقة أو حزب أو غيرهما، إنه كتاب جاء لإقامة العدل بين جميع الناس (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز)[الحديد/30].

العدل للإنسانية قاطبة لا لهذه الطبقة دون الأخرى، ولا لقوم دون آخرين؛ محافظا بذلك على حرية ضمير الإنسان، وعقله وفطرته، ولذلك كانت رسالة الإنسانية موجهة للمتهورين ليرفع عنهم القهر، وللظالمين ليتزع من نفوسهم الظلم، داعية لهم جميعا إلى طريق العدل والنور والحرية.